الثورة
الأحد 29 شوال 1433هـ 16 سبتمبر 2012م العدد (17470)

العمارة الطينية في اليمن..

سجل تاريخي وفن يتجاوز المألوف

■ سد مأرب.. المدرجات الزراعية على الجبال.. مدينة صنعاء التاريخية.. دار الحجر.. شبام حضرموت ...إلخ شواهد حية باقية على علاقة الإنسان اليمني ببيئته.. فمنذ بدايات التاريخ وهذا الإنسان يعمل على ترويض بيئته - لا التكيف معها - وعلى نحو لا يضّر بها أبداً.. وذلك بأسلوب خاص يزيد من جمال المكان وحميميته.. وهو ما منح حياة اليمنيين طابع الاستقرار الذي أدى إلى نشوء المدن التي بدأت من تجمعات سكانية صغيرة كالأحياء وانتقلت إلى مرحلة القرية وأخيراً المدينة.. والتي تعددت وتنوعت حسب اختلاف الطبيعة الجغرافية والمناخية.

لقد برعت الحضارة اليمنية القديمة في فن العمارة والبناء.. ولعل أدلّ مثال على ما وصل إليه إنسان تلك الحضارة هو سد مأرب الشهير.. والذي عدّهُ كثير من المؤرخين أعظم ابتكار قام به عرب جنوب الجزيرة العربية - أهل اليمن - الذين استطاعوا أن يحولوا الصحراء إلى جنة كبيرة على الأرض.. يقول سبحانه وتعالى في الآية 15 من سورة سبأ: «لقد كان لسبأ في مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور».

لقد كانت فكرة هذا البناء الهندسي متقدمة على الكثير من المشروعات المماثلة والمعروفة في حضارات أخرى كالفرعونية والكلدانية وبلاد الرافدين.. إذ إنه يتجاوز فكرة توفير خزان مائي ضخم يحجز مياه الأمطار.. إلى ابتكار جديد يروي مساحات شاسعة من الصحراء القاحلة وذلك عن طريق شبكة من قنوات الري الممتدة في تفرعات كبيرة.

وإذا كان قصر غمدان الأسطوري قد انمحى على أرض الواقع ولم يتبقَ منه سوى روايات الإخباريين والتاريخيين العرب وغيرهم.. فإن ثمة شواهد تاريخية لا تزال باقية وصامدة في وجه العصور والقرون وهي العمارة اليمنية التي تجاوزت مرحلة الصناعة إلى الفن.. وذلك عبر مستويات عدة مثل تنوع الأنماط الهندسية واختلاف الأشكال والأحجام، الأمر الذي جعل الكثير من المستشرقين والمؤرخين والرحالة يقفون أمام روائعها - العمارة اليمنية - بذهول لا يحد واندهاش لا يوصف.. فمدينة صنعاء القديمة عند أحدهم هي عبارة عن: (متحف فني مفتوح) أما شبام حضرموت فقد عدّها غالبة من زارها أنها: (أول ناطحات سحاب في العالم).. هذا طبعاً غير آراء وانطباعات أخرى - ليس هذا مجال تعدادها أو حصرها - عن مدن مثل زبيد وصعدة والهجرة والطويلة والجوف ...إلخ

المقالح عبدالكريم

إن العمارة وبشكل عام - حسب المهندس شهوان محمد - واحدة من الرموز الثقافية المادية والتي تعد مرآة تعكس تعاقب التاريخ بتطوراته وتغيراته.. وهكذا فإن العمارة هي من (أكثر الوثائق التي يمكن اعتمادها في إعادة بناء تصورنا عن الماضي.. فهي تعطينا مباشرة المعاني الاقتصادية والاجتماعية والسياسية السائدة في المكان والزمان).

أما بالنسبة للعمارة اليمنية فقد كانت وعلى مر العصور تمثل السجل الحقيقي المعبر عن حضارة الإنسان وتطوره وأسلوب حياته وذلك من وجهة نظر عبدالحكيم طاهر والذي يرى أن الحضارة الراقية قد تركت لنا في مدنها ومراكزها الحضرية تراثاً معمارياً يواكب متطلباتنا حتى اليوم.. لذا فهناك (مزايا كثيرة ومتعددة تزخر بها العمارة اليمنية والفن المعماري اليمني والذي أبدع اليمنيون كثيراً في رسم تحف معمارية فريدة ونادرة).

إن القيمة التاريخية للعمارة الطينية في اليمن.. إضافة إلى قيمها ومعاييرها الجمالية المتجسدة في كثير من المدن التاريخية.. كانت من أهم عوامل الاهتمام الدولي بها.. حتى أن منها ما تم إدراجه في قائمة التراث العالمي في اليونسكو مثل مدينة صنعاء القديمة وشبام حضرموت ومدينة زبيد والتي أعلن عنها كتراث إنساني عالمي وذلك في المؤتمر العام لليونسكو - بلجراد1980م - والذي اتخذ قراراً بالإعلان عن حملة دولية لحماية وصيانة هذه المدن الثلاث.

إلهام الطين

منذ ما قبل التاريخ - حوالي عشرة آلاف عام - عُرف التراب والطين فشاد إنسان الحضارات الأولى مساكنه ومعابده وقصوره بهذه المادة.

فسور الصين العظيم مشيد بمعظمه من الطين والتراب الخام.. وهو ما نجده منتشراً في حضارات أخرى مثل حضارة بلاد الرافدين ومصر الفرعونية وحضارة الهنود الحمر والمكسيك إضافة إلى الحضارة الهندية والرومانية والإسلامية.. أما في الوقت الحاضر فهناك ما يقارب من ثلث سكان العالم والذين يعيشون في منازل طينية.

لحظة.. لكن ما هو الطين..؟!

إنه وحسب التعريف العلمي وكما يوضح لنا المهندس اليمني صالح عبد الله بقوله: الطين أساساً ناتج عن تحلل الصخور النارية.. وهو لذلك مركب من دقائق صغيرة متبلورة من سيلكا الألمنيوم.. وتعتبر اللزوجة من خواصه الطبيعية وذلك عند إضافة الماء إليه.. لذا نراه يتدرج من الأبيض الفاتح إلى البني الغامق وبالنسبة لوزنه فيبلغ مابين 1400 إلى 1800 جرام في المتر المربع وذلك حسب درجة التماسك.

وإذن لماذا الطين بالذات..؟!

الثابت علمياً أن الطين هو من أفضل المواد العازلة للحرارة.. يضيف المهندس صالح عبد الله: يتكون النقي منه أو ما يطلق عليه الصلصال من حوالي 46.5 % من سيلكا الألمنيوم - ثاني أكسيد الكربون - و39.5 % من ثلاثي أكسيد الألنيوم.. بالإضافة إلى حوالي 14 % من الماء.. فهو تشكيل معقد من السيلكون والألمنيوم والهيدروجين.. وهو ما يجعل العمارة الطينية أكثر تميزاً من العمارة الأسمنتية.. فحسب المعماري سالم خميس فإن الجدران الطينية تعتبر عازلاً جيداً للحرارة والبرودة فلا تسمح بسرعة انتقالها من غرفة إلى غرفة.. إضافة إلى سهولة التعامل مع الطين أثناء البناء حيث يسهل تشكيله وزخرفته.

أما على مستوى آخر وهو البعد النفسي والذي تطرقت إليه الكثير من الدراسات والأبحاث التي أثبتت أن الطين له تأثير نفسي إيجابي على الإنسان.

أنماط واستخدامات

(الأحجار - الجص - الخشب) هذه بعض من مواد البناء التقليدية المستخدمة في العمارة اليمنية.. ويأتي الطين في مقدمة هذه المواد وذلك بسبب توفره في البيئة وسهولة الحصول عليه وسهولة تشكيله.. ولعلها عوامل هامة جعلت الإنسان اليمني يعتمد الطين كمادة رئيسية في بناء كثير من المدن مثل صنعاء وصعدة وشبام حضرموت والجوف.. فالطين من المواد التي لها استخدامات متنوعة كالتالي:

1 - اللبن أو الطوب الطيني: يستخدم الطين بشكل وحداتَ بناء أبعادها (10×16×32).. يخلط ويجفف بالحرارة الطبيعية للشمس.. والنموذج هنا نجده في مدينتي صعدة والجوف.

2 - الطوب: يوضع الطين بشكل قوالب أبعادها (7×17×17).. ويتم حرقه بأفران خاصة.. وأشهر النمادج هنا متمثلة في مدينة صنعاء القديمة.

3 - الزابور: في هذه الطريقة يتم خلط الطين بالتبن ويترك مع الماء ليتخمر لمدة يومين.. ويستخدم بعد ذلك في بناء الحوائط على شكل حزام يشكل تعرجاً عند الأركان.. أو يستخدم في تغطية الأسقف الخشبية في الغرف والعناصر الخشبية في الجدران ويسمى حينئذ بـ(الملاجة).. وهو ما يمثل مدينة شبام حضرموت كنموذج.

الحزينة

زياد القحم

الحزينة تبحث عن
(مطرح) للفرحْ
الحزيِّنة تلبسُ ثوبَ
حدادٍ جميلاً
تحاولُ أن تسلخَ الثوبَ
عن عطرِ همتها
تستعيدُ الأمانَ الذي عن
جوانبها قد نزحْ
الحزينةُ يثقلها فوحها
كلما عقدت غزل نسيانها
نقضته الخلافات
والحرب والموجعات
كلما قلمت قلبها وبدا
شاعراً
نبتت حوله من تقاليد
أحزانها نكبة فاستعاد
القُرَحْ
الحزينةُ مغلولة الماء
في محاولة للخرير ..
تكسر أوتادها
وتبدد أبناءها
وانتفاخات أوداجها
وانتقامات أزواجها
وتمزق إيمانها البكر ..
أحلامها المستعادة من
أول القات
أشواقها للزمان الجميلْ
الحزينةُ مكسورة الروح
إن طمحت لاحتساء
عصارة سلوانها
أخلف الكون موعده
وأفاقت على وجع فاخرٍ
يخبز الوقت أخبارها
السود أرغفة .. تشبع
المستحيلْ

a700139898@gmail.com

محفوظ وتحولات الحكاية

■ يعتبر كتاب «نجيب محفوظ وتحولات الحكاية: اللص والكلاب نموذجاً» للكاتب والناقد شريف صالح، والصادر أخيرا عن الهيئة العامة لقصور الثقافة بالقاهرة، أول دراسة من نوعها على مستوى العالم العربي عن العالم الروائي لأديب نوبل نجيب محفوظ تتجاوز المقارنة بين شكلين سرديين كالرواية والفيلم، وتسعى لاستقصاء وتتبع الحكاية في تحولاتها المختلفة من وسيطٍ إلى آخر، حيث تتبع صالح حكاية «اللص والكلاب» بدءاً من قصة سفاح الإسكندرية محمود أمين سليمان التي نشرتها الصحف مطلع الستينيات وتأثر بها محفوظ، فكتب رواية «اللص والكلاب» والتي تحولت إلى فيلم سينمائي أخرجه كمال الشيخ، كما قدمها المخرج أحمد خضر في مسلسل في نهاية التسعينيات من القرن الماضي.

وعبر الوسائط الأربعة يرصد الناقد بنية الحكاية وكيف تتحول من شكل إلى شكل، ماذا يُضاف إليها وماذا يُحذف منها. وذلك على مستوى إطار الحكاية وشخصيتها وزمكانيتها ومن يحكي ومن تُحكى لها.

وتتأسس الدراسة المميزة والتي استغرقت قرابة خمس سنوات، من فرضية أساسية بأنه ليس للإنسان وجود خارج الحكاية، فهو يستوعب ذاته ضمن حكاية أبدية كبرى تبدو لانهائية. ويحاول البحث أن يستوعب الحكاية في تجلياتها المختلفة المرئية والمسموعة والمقروءة، كيف تشتغل وما هي مكوناتها الرئيسية؟ كيف تصاغ وتتطور؟ وفي الوقت نفسه لا تتكرر أية حكاية أبداً، فأي واقعة يراها الآخرون - مثلاً - في لحظة معينة، لا يرونها بالكيفية ذاتها، يكفي أن يتغير الراوي كي تتغير بنية الحكاية.. أو يتغير الوسيط نفسه، حيث للوسيط الصحفي بنيته الخاصة وإكراهات بعينها في طرائق السرد، تختلف إلى حد كبير عن الرواية أو الفيلم أو المسلسل. وإن اتفقت الأشكال الأربعة كلها في طبيعتها السردية المتمايزة عن الأشكال الشعرية أو المسرحية.

من الحادثة إلى الرواية

في مارس وأبريل/آذار ونيسان عام 1960 لم يكن هناك حديث للشعب المصري إلا عن سفاح الإسكندرية، وبراعته في التنكر والهروب من الشرطة التي تطارده في العديد من المدن ما بين الإسكندرية والقاهرة.

وكانت الصحف والمجلات وعلى رأسها الإهرام تتسابق في نشر أخبار ومغامرات محمود أمين سليمان، وكان محفوظ يتابع بدأب شديد تفاصيل تلك القصة، وهو ما أكده الأديب الراحل يحيى حقي في مقاله عن «اللص والكلاب» حيث قال له محفوظ نفسه إنه مشغول بمتابعة قصة محمود أمين سليمان.

وما هي إلا أشهر قليلة عقب تلك الوقائع التي انتهت بقتل السفاح في مغامرة في حلوان، حتى أصدر محفوظ روايته القصيرة «اللص والكلاب» التي تقع في حوالي 140 صفحة، والتي اعتبرت تطوراً مهماً في أسلوبه الروائي وبداية مرحلة إبداعية جديدة.

في نص الحادثة نتعرف على سفاح في الثلاثين من عمره عمل في مهن كثيرة، كما كان بارعاً في التنكر، وقادراً على المراوغة والهروب بين مدن كثيرة كالقاهرة والجيزة والإسكندرية، وأيضاً عاش لفترة في لبنان. من تلك الشخصية الثرية والمثيرة استلهم محفوظ شخصيته الروائية الشهيرة «سعيد مهران» في «اللص والكلاب التي صدرت عام 1961.

وإذا أخذنا محور «الزمن» نلاحظ أن أسطورة السفاح بدأت عقب هروبه من السجن، بينما أسطورة سعيد مهران بدأت عقب خروجه من السجن. كما كثف محفوظ أحداث الرواية في حدود أسبوعين بدلاً من شهرين في الواقع.

نأتي إلى «المكان» لنجد أن أديبنا الكبير اختزل أماكن القصة الحقيقية الموزعة على عدة محافظات مكتفياً بالقاهرة الكبرى، وبدلاً من التركيز على حي محرم بك في الإسكندرية باعتباره بؤرة الأحداث في القصة الحقيقية، أدخل محفوظ شخصية «سعيد مهران» إلى عالمه الأثير وتحديداً أحياء القاهرة القديمة حول القلعة.

ومن بين حوالي 90 مكاناً ورد ذكرها في الحكاية الصحفية، كثف محفوظ خريطة الرواية في حوالي 20 مكاناً.

ونصل إلى عنصر آخر من عناصر السرد وهو «الشخصية» فقد حفلت الحكاية الصحفية بأكثر من 150 شخصية، نصفها من رجال الشرطة والنيابة والقضاء، بينما تقلص العدد في الرواية إلى حوالي 40 شخصية. لكن الملاحظة الأساسية أن معظم الشخصيات في الحكايتين كانت معارضة لسعيد مهران ومهددة لوجوده ومقاومة لرغبته في الانتقام.

من الرواية إلى الفيلم

بعد عام من نشر رواية نجيب محفوظ، قدم المخرج كمال الشيخ فيلمه «اللص والكلاب» المأخوذ عنها، تمثيل شكري سرحان «سعيد مهران»، شادية «نور»، كمال الشناوي «رءوف علوان»، فاخر فاخر «الشيخ الجنيدي»، صلاح جاهين «المعلم طرزان»، زين العشماوي «عليش»، وسلوى محمود «نبوية». وشارك الشيخ مع صبري عزت في كتابة المعالجة السينمائية للرواية.

الفيلم مدته 125 دقيقة، وتضمن أكثر من مائة مشهد، تعرض لحوالي 50 شخصية، وإجمالاً التزم الفيلم بمعظم شخصيات الرواية، لكنه قلص حضور الشيخ الجنيدي في مشهدين فقط، وجعل بياظة صاحب مقهى وليس أحد أتباع عليش كما هو في الرواية، واختلق بعض الشخصيات التي لا وجود لها في النص الروائي أبرزها السجين مهدي «صلاح منصور».

وإذا كانت الحكاية الصحفية بدأت من لحظة الهروب من السجن، والرواية بدأت من لحظة الخروج منه، فإن الفيلم عاد إلى الوراء زمنياً، وبدأ من فعل خيانة «نبوية» و«عليش» الذي أدى إلى دخول سعيد مهران السجن.

ومن ثم نلاحظ أن مسار الزمن تحول جذرياً، من شهرين في الواقعة الحقيقية، إلى قرابة أسبوعين في الرواية، إلى حوالي خمس سنوات في الفيلم. أما المكان الفيلمي فهو يتركز، أو على الأقل يوهمنا بذلك، حول حي القلعة والأماكن المحيطة به.

وإذا كان محفوظ ترك نهاية «سعيد مهران» غامضة قليلاً ولم يُجزم بقتله، فإنه من المعروف أن سفاح الإسكندرية «محمود أمين سليمان» قُتل بالفعل في مغارة في حلوان. وهو ما أكد عليه الفيلم أيضاً بشكل لا يحتمل اللبس.

وفي القصة الحقيقية ظهرت زوجته - بعد مصرعه - ورفضت استلام جثته، بينما في الفيلم ظهرت عشيقته «نور» وهي تحاول أن تقنعه بتسليم نفسه، أما في الرواية فقد واجه مصيره وحده بعد هروب زوجته الخائنة واختفاء عشيقته!

• من الفيلم إلى المسلسل

من المهم أن نشير إلى أن استلهام شخصية سفاح الإسكندرية لا يقتصر على الحكايات الأربع، فالروائي الراحل غالب هلسا استلهمها أيضاً في رواية بعنوان «سؤال» ولا علاقة لتجربته بنص محفوظ.

بينما قدم المخرج الراحل حمدي غيث رواية «اللص والكلاب» للمسرح من بطولة صلاح قابيل، وإن لم يعثر الباحث على أي مادة فيلمية عنها.

كذلك التقى صالح السينارست الراحل محسن زايد الذي قدم الرواية في مسلسل في السبعينيات من بطولة عزت العلايلي، وأيضاً لم تتوافر مواد فيلمية عن هذا العمل.

ولذلك تم الاكتفاء بأحدث معالجة تليفزيونية للرواية وهي مسلسل «اللص والكلاب» إخراج أحمد خضر ومعالجة أبو العلا السلاموني، وتم إنتاجه عام 1998.

المسلسل يقع في 17 حلقة، متوسط الحلقة 41 دقيقة، ويشمل حوالي 500 مشهد. تمثيل: عبلة كامل «نبوية»، رياض الخولي «سعيد مهران»، هاني رمزي «عليش»، بهاء ثروت «رءوف علوان»، و رانيا فريد شوقي «نور».

وإذا كانت الحكايات الثلاث السابقة بدأت من لحظة دخول السجن أو الخروج منه أو الهروب، فإن الحكاية التلفزيونية ابتعدت تماماً عن تلك اللحظة، وبدأت من مرحلة عمل سعيد في بيت الطلبة خلفاً لوالده. وبذلك فإن زمن الحكاية التلفزيونية جاء مشوشا، فقياسا على عمر سعيد استغرق ما يزيد على عشر سنوات، وقياسا على الأحداث السياسية والاجتماعية في المسلسل مثل مظاهرات الطلبة المطالبة بالحرب عام 1972 وحرب أكتوبر وصعود التيار الإسلامي وشركات توظيف الأموال والتحذير من الإرهاب، يغطي المسلسل حوالي ربع قرن من الزمان وليس أسبوعين فقط، كما في الرواية.

وعلى عكس الرواية والفيلم اللذين كثفا عدد الشخصيات، فإن المسلسل جاء مشابهاً للحكاية الصحفية في ضخ عشرات الشخصيات الثانوية في مجرى الحكاية أهمها: ضبو، شلبية، والدة نور، خشبة، ومدحت. بينما تعد شخصية شلاطة «توفيق عبدالحميد» في المسلسل، امتداداً لشخصية «مهدي» في الفيلم وليس لها وجود في الرواية.

أهم ما يميز هذه الدراسة المهمة تخففها من «الكليشهات» الأكاديمية وجفافها، فهي تشتبك مع الوسائط الأربعة. وقد تطلب إنجازها وقتاً طويلاً لحرص الكاتب على ضبط وتقنين «التحولات» المختلفة، ما استلزم القيام بجهود كبيرة، لإعادة كتابة وتجميع القصة الصحفية من «ميكروفيلم» جريدة الأهرام، إضافة إلى مشاهدة الفيلم عدة مرات وكتابة سيناريو وصفي كامل لحواره ومشاهده وشخصياته، وبالمثل كتابة المشاهد الأساسية للمسلسل وفحوى الحوار فيها لاستحالة إعادة كتابة سيناريو كامل لـ 17 حلقة

وبذلك تجاوز صالح المقارنة الإجمالية والعامة، وقدم مقارنة استقصائية وتفصيلية، كاشفة في الوقت نفسه لطبيعة كل وسيط ومدى التباين في إعادة إنتاج الحكاية. حيث تكشف قراءة الحكايات الأربع عن عدم تطابقها على مستوى بنائها وشخصياتها وأزمنتها وأماكنها ورؤيتها لشخصية البطل.

ولا يقتصر الأمر على كون الحكاية مفتوحة على احتمالات كثيرة في إنتاجها، بل هي أيضاً مفتوحة في تلقيها وتأويلها، وهو ما أثبته صالح في دراسته، وخير مثال على ذلك تباين قراءات النقاد للرواية فهناك من صنّفها باعتبارها رواية قصيرة «أنور المعداوي»، أو قصة قصيرة طويلة «يحيى حقي»، أو قصة متوسطة الحجم «ماهر فريد شفيق».

وبالنسبة إلى الاتجاه الفكري والجمالي، فإن البعض اعتبرها «قصة كلاسيكية القالب رومانسية المضمون» «لويس عوض» فيما نسبها آخرون إلى الاتجاه الوجودي، فأزمة سعيد مهران وجودية من وجهة نظر أنور المعداوي، وغالي شكري وإبراهيم فتحي.

وبعد هذه الرحلة الممتعة نخلص من ذلك إلى أن الحكاية تبقى مفتوحة إلى الأبد إنتاجاً وتأويلاً وإعادة إنتاج، كما تبقى متشابكة مع تاريخ لا نهائي من الحكايات. وتلك المساهمة البسيطة هي محاولة لإدراك عملية بناء النص الروائي لدى محفوظ وتحولاته، وتعميق الوعي به انطلاقاً من مقولة إغريقية قديمة جداً بأنه «لا أحد ينزل نهر الحكاية مرتين»!